النصوص القصصية تنويعات مختلفة على وتر التاريخ

عزيزة الطائي: النقد واحد لا هو غربي ولا عربي

يزخر المشهد الأدبي العماني بالعديد من الأصوات الثرية في مجال السرد أو الشعر أو النقد، لكن تبقى الإشكالية المطروحة دائما على الكتّاب العمانيين مسألة تجاوز المحلية والتأثير المحدود، وهو ما يؤثر على النصوص قبل تأثيره على الأدباء أنفسهم. نجد البعض من النصوص التأسيسية للأدب العماني محبوسة في بيئتها، وهذا ما جعلها محلية بالأساس، حيث لم تفتح النصوص البيئة المحلية على الكونية أو على مدى أوسع، بل فقط كان تناولها نوعا من الانطباع الذي لا يتمكن في غالبه من تجاوز العتبات القريبة. تطور النص السردي العماني بشكل كبير سواء في الرواية أو القصة القصيرة، حتى أن كاتبة عمانية هي جوخة الحارثي نالت عن روايتها "سيدات القمر" جائزة المان بوكر العالمية، وهي من أرفع الجوائز الأدبية في العالم، ولكن هل جاء هذا من فراغ؟ الإجابة نجدها في النقد الأدبي العماني الذي يواكب بجرأة كل ما يكتب ويدفع بقوة تجاه التجديد وتجاوز الأنماط الكلاسيكية، ويحاول مواكبة النصوص في توليفها بين المحلية والعالمية، وهو ما تخوضه الكثير من النصوص. في ما يلي حوار مع الكاتبة والناقدة العمانية عزيزة الطائي حول السرد العماني وعوالمه.

أجرت الحوار: يسرى أركيلة

الجديد: ما هو المنهج الذي اعتمدته في تحليل النصوص السردية العمانية وقراءتها في دراستك المنشورة مؤخرا حول الخطاب السردي في الكتابات العمانية الحديثة؟

• عزيزة الطائي: المنهج الذي اتبعته في هذه الدراسة منهج الخطاب السردي من خلال الجمع بين نظرياته وآلياته المتحققة عند منظريه الفرنسيين والشكلانيين الروس. وهي دراسة قصدنا منها تناول الخطاب السّردي في الكتابات السّردية العُمانيّة الحديثة في الفترة الممتدة من (1939 – 2010)، وقد شئنا لها أنْ تكون شاملة للسّرد التّمثيليّ التّخييليّ، وما يمثّله من قصة قصيرة، ورواية، وقصة قصيرة جدا، ورواية سيرذاتيّة والسّرد الذاتيّ الواقعيّ، وما يمثّله عامّة من سيرة ذاتيّة، ومحكيّ طفولة، ويوميّات خاصّة، ومذكّرات، وبورتريه ذاتيّ، ومقال ذاتيّ، ورسائل خاصّة، لما تمثّله هذه الكتابات المتنوّعة من روافد دالّة على خصائص تبلور الخطاب السّردي العُماني ومظاهر تطوّر آلياته الكتابيّة الفنيّة والمضمونيّة على مدى حقبة من الزمن غير قصيرة.

> **القصة القصيرة والرواية في عمان لم تتحركا منذ نشأتهما بعيدا عن النقد، فقد كان النقد حاضرا يواكب خطواتهما**

قدّمنا للبحث بتمهيد تحدثنا في جزئه الأول حديثا موجزا عن تعريف الخطاب السّردي وتطرقنا لآراء مجموعة من النّقاد لمصطلح الخطاب (Discourse) معرّجين على أبرز تيّارين سرديين اهتمّ بهما الباحثون: أولهما، السّرديّة الدّلالية، ويمثل هذا التيار: بروب (Propp) وبريمون (Bremond) وغريماس (Greimas). وثانيهما، السرديّة اللسانية. ويمثل هذا التيّار، عدد من الباحثين من بينهم: بارت (Barthes) وتودروف (Todorov) وجينيت (Genette). ولم نغفل عن الإشارة إلى محاولات النقّاد وجهودهم للتوفيق بين منطلقات هذين التّيارين، إذ حاول جاتمان (Chatman) وبرنس (Prince)، الاستفادة من معطيات السّرديّة في تياريها الدّلالي واللّساني، والعمل على دراسة الخطاب السّردي في مظاهره بصورة كليّة.

ثم عرّجنا على أنواع الخطاب السّردي العُماني الذي مهّدنا له بمقدمة تنظيريّة تناولنا فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطّته، ومنهجنا الذي سنسير عليه، وأهميته مستندين إلى منهج تحليل الخطاب دون التنكّر للمضامين لصالح أشكال السرد متتبعين مسار الخطاب السّردي في عُمان وأبرز الأنواع السّردية التي كتب فيها الكاتب العُماني، وكيف تجلّت اتجاهاتها عبر مراحل زمنية تخوض التّجريب، وتنشد التّطور بهدف الوصول إلى النضج الفني.

معيار الاختيار

■ **الجديد**: ما المعيار أو المعايير التي لجأت إليها في اختيار النصوص، وما هي الاستجابات التي كنت تتوقعينها من النصوص، وما الذي فاجأك فيها، ولم تكن تلك المفاجآت في توقعك؟

• عزيزة الطائي: المعيار كان معتمدا على: الأسبقية، والجودة، والتطور الذي أحدثته هذه النصوص في مسار النص العماني، وهي عَيِّنَة ممثلة جدا، إذ ضَمَّت الدراسات المنشورة ضمن كتب إصدارات المنتدى الأدبي، والدراسات الأكاديمية المنشورة أو غير المنشورة. فإنّ ما لمسناه من تنوّع النصوص السّرديّة العمانيّة في فترة مبكّرة من ظهورها فضلا عن ثرائها الفنّي والمضموني يعدّ من أهمّ العوامل التي جعلتنا لا نكتفي بدراسة منظومة السّرد التخييليّة، ونعمل على توسيع دائرة الدراسة لتشمل منظومة أدب الذّات المرجعيّة أيضا، إذ لا يكتمل النّظر في الخطاب السّرديّ الأدبيّ ولا تتشكّل أبعاده الإنشائيّة تشكّلا عامّا إلا باجتماع المنظومتين المذكورتين، وتظافرهما على تكييف ملامح الخطاب السّردي الكبرى.

وقد كان بالإمكان أن تقتصر هذه الدراسة على درس نوع أدبيّ واحد مثل الرواية أو القصّة القصيرة، ومتابعة مختلف أطواره الفنيّة، ولكنّنا طمحنا إلى تحقيق مغامرة نقديّة شاملة تستقرئ بتأن ما ترسّب إلى يومنا هذا من العديد من الدّراسات النّقديّة الناضجة التي تتابع باستمرار ما يصدر من كتابات سرديّة عمانية متنوّعة، التخييلية منها والذاتيّة المرجعيّة على حدّ السواء، ولكن أحادية هذه الدّراسات وتراكمها اللّافت جعلنا نعي اليوم أنّ الأدب العُماني بات في حاجة أكيدة إلى استجلاء ملامحه العامّة ومنعرجاته الفنيّة الكبرى عبر تحقيق دراسة نقديّة جامعة تجمع شتات ما أنجز من أجل رسم الجغرافية العامّة للمنجز الأدبي العماني، وطرح إشكالياته ورهاناته الكبرى، فضلا عن مزيد التّعريف بنصوصه وأهمّ مبدعيها.

■ **الجديد**: أشرت في مقدمة دراستك للسرد العماني إلى أن "أغلب ما كُتِب من دراسات نقدية في أنواع السّرد العماني متناثر في مواضع شتّى من الصّحف والمجلات والدّوريات المحليّة". هل تعتبرين أن الكتابات النقدية التي أشرت إليها كانت منتجة لمعرفة عميقة بالنصوص وفاعلة بالتالي في القراءة العامة؟

• عزيزة الطائي: بالنسبة إلى المادة النّقدية العُمانية التي مثّلت الأرضيّة التي انبنى عليها مشروع البحث كانت غزيرة وموزّعة في مظان مختلفة، ولئن لم يقارب أيّ منها الخطاب السّرديّ العماني في شموليته لأجناس عدّة، فإنّنا نرى من الضّروري أن نعرّف بأهمّها محيلين بذلك على جهود من سبقنا، ومهّد لنا الطريق لنواصل الجهد المبذول، ونقرّ بفضل السابقين علينا في ما نحن ماضون في إنجازه حتّى يتّخذ الأدب العمانيّ المكانة التي تليق به في حقل الأدب العربيّ عامّة، رغم قلّة التّعريف نسبيا بمنجزه المحترم إلى اليوم.

فهذه الجهود المتناثرة كانت بمثابة العين المفتوحة لنا، وهي جهود تحليلية بعضها تحليلات وقراءات ماثلت النقد الفاعل، وبعضها كالدراسات الأكاديمية وغيرها مثّلت القاعدة النّقديّة التي انطلق منها مشروع هذا البحث حتى تتكوّن للقارئ فكرة نسبيّة عن صيرورة النّقد العمانيّ الحديث. وقد آثرنا أن نبدأ بالإحالة على النّقد الذي يعنى بالمتخيّل الأدبيّ لأسبقيته على النّقد المتعلّق بالكتابات الذّاتيّة المرجعيّة التي جعلناها لاحقة له.

ورأينا أن كلاً من القصة القصيرة والرّواية في عُمان لم تتحركا منذ نشأتهما بعيدا عن النّقد، فقد كان النّقد حاضرا يواكب خطوات القصّة القصيرة؛ بالأخصّ منذ بداياتها الأولى رغم اتّسامه بشيء من البطء قياسا بتسارع وتيرة حركة الإصدارات القصصية، وتتابعها المكثّف في الزّمان. أما بالنسبة إلى أدب الذّات في عُمان تندر حوله الدراسات النقديّة المنهجيّة بالقياس إلى ما هو متوفّر من دراسات نقديّة تعنى بالمتخيّل الأدبي؛ إلّا إذا استثنينا دراسة نصيب الصّبحي "السّيرة الذّاتية في الأدب العماني الحديث – دراسة وصفيّة تحليليّة". تنطلق هذه الدراسة من فرضية مفادها أنّ المفهومَ المعياري للسّيرة الذّاتيّة لم يعد قادرا على تمثيل نصوصها التي تكتب اليوم في الأدب العمانيّ المعاصر، كما أنّ تواري الكتّاب خلف رواياتهم للحديث عن حياتهم يجعل الحدود بين السير الذاتية والرواية متداخلة، علاوة على أنّ السّير الذاتيّة في عُمان تستمدّ أسلوبيّتها من الرّواية.

■ **الجديد**: غالبا ما يلجأ دارسو النصوص الأدبية الحديثة المكتوبة بالعربية إلى مناهج نقدية غربية وهذه المناهج ومصطلحاتها هي منتج فكري ونقدي هو خلاصة تتصل بتاريخ الثقافة الغربية وتوجهاتها، هل ترين أن النص العربي يحمل في جيناته اللغوية وميزاته الجمالية القابلية على القراءة والتحليل انطلاقا من هذه المرجعيات النقدية الغربية؟

• عزيزة الطائي: من وجهة نظري المتواضعة فالنظريات النقدية واحدة، وقابلة للتطويع على أيّ نص مدروس حتى وإن كانت من ثقافات أخرى، فالحكم على فنيات النص وبنيته من خلالها كون النص الأدبي مبناه متشكل ومنتزع من متعدد وهي التي تتناولها هذه النظريات، أما المضامين الموضوعاتية هي التي تختلف من بيئة إلى أخرى؛ علما بأن هناك الكثير من الأسماء العربية بدأت بصياغة آليات نقدية من خلال النظريات المطروحة فعلى سبيل المثال لا الحصر في السرد المتخيل تتفاوت الأصوات بين نقاد المشرق كعبدالله إبراهيم، خليل الشيخ، جابر عصفور، صلاح فضل، عبدالفتاح كليطو، محمد القاضي، محمد الخبو، عبدالرحيم جيران، يمنى العيد، سيزا قاسم وغيرهم، أما على صعيد كتابات الذات أعتقد إسهامات جليلة الطريطر في كتابها المرجعي الذي أطرت فيه لنظريات مهمة من خلال تطبيقها على بعض النصوص العربية.

■ **الجديد**: هناك من يعتبر أن الثقافة العربية فقيرة في المصطلحات النقدية ومتخلفة عن إنتاج هذه المصطلحات هل توافقين على هذا الرأي؟

• عزيزة الطائي: لا أتفق كليا، لأن الترجمات ومرونة اللغة العربية واتساعها فتحت أبوابا منافذها مشروعة عند ترجمة هذه المصطلحات وما يقابلها في اللغة العربية، وهذا ما قمت به في أحد فهارس كتابي الذي اجتهدت فيه فكل مصطلح أجنبي له ما يقابله في اللغة العربية؛ وقد أفادني كتاب معجم السرديات الذي أشرف عليه الدكتور محمد القاضي مع مجموعة باحثين ومنظرين قديرين من تونس، ومعجم مصطلحات التداولية الذي اشتغل عليه مجموعة باحثين تحت إشراف عزالدين المجدوب، والمعجم الموسوي في علوم اللغة الذي ترجمه عبدالقادر المهيري وحمادي صمود.

عالم السرد

■ **الجديد**: ما هي أبرز الخلاصات التي خرجت بها من دراسة النصوص السردية العمانية؟

• عزيزة الطائي: حين نتحدث عن النصوص السردية في عمان لا بد أن نميز بين مراحل ظهورها من جهة ومراحل تطورها من جهة أخرى. ويتطلب منا ذلك الوقوف عند دعامتين سرديتين، هما: الأدب المتخيل (القصة القصيرة، الرواية، القصة القصيرة جدا، الرواية السيرذاتية) وأدب الذات (السيرة الذاتية، محكي الطفولة، المقال الذاتي، اليوميات) فهذه الأجناس بأنواعها حاضرة في عمان حسب مرجعية وتاريخ حضورها. وأبرز ما خرجت منه دراستي أنّ تطور القصة القصيرة العُمانيّة متواشج، ومتفاعل مع تطور الأحداث والمخاضات التي حدثت للمجتمع منذ سنوات الانغلاق السّياسي، التي اتسمت بالبحث عن الهويّة الوطنيّة، إلى سنوات الانفتاح التي اتسمت بالبحث عن الهويّة الاجتماعيّة. إنّ التمرحل الذي قطعته القصة القصيرة العُمانيّة، يكاد يناظر ويماثل ذاك التمرحل الذي قطعته القصة القصيرة العربية بعامة، مع فارق أساسيّ، وهو أنّ القصة القصيرة العُمانيّة كانت مشمولة بسطوة الواقع المعيش، فجاءت تعبر عن الحالة الاجتماعيّة والسّياسيّة التي مرّ بها الإنسان العُماني.

إنّ عدم الاستقرار الفني الذي تعيشه القصة القصيرة العُمانية جزء لا يتجزأ من عدم الاستقرار النّفسي والفكري والاجتماعي، ومؤشر عليه. بيد أنّ هذا لا يمنعنا من اعتبار الواقعيّة هي السّمة الغالبة على القصة القصيرة العُمانيّة، ومهما تعددت، وتقنّعت طرائق وتجليات هذه الواقعيّة.

أما سيادة البناء التّقليدي على بناء الرواية العُمانية، فيبدو ذلك واضحا من خلال سيطرة نسق التّتابع في بناء الأحداث، وغلبة الحبكة التّقليدية، وسيطرة البناء التّقليدي في بناء الشّخصية، وبناء المكان من حيث العناية بهما وتقديمهما تقديما كاملا شبه تفصيلي، وسيادة النّسق الخطي الأفقي في بناء الزّمن، وسيطرة اللغة الواضحة، وسيادة الراوي الخارجي – كليّ العلم – الذي يأتي عبر ضمير الغائب.

هناك محاولات جادّة للتّجديد في الرّواية، وسعي دؤوب للخروج من أسر البناء التّقليدي، عبر استخدامها لبعض الأساليب الحديثة، خصوصا في ما يخص الزّمن الروائي، والرّاوي، حيث عمدت بعض الرّوايات إلى كسر التسلسل الأفقي، من خلال توظيفها لتقنية الاسترجاع أو الاستباق بصورة متكررة فكسرتْ نمطيّة السّرد التتابعي، وجمعت بعض الروايات بين التناوب الزّماني، وتعدد الرواة، وفئة ثالثة جمعت طرقا جديدة منها التّناوب الزّماني، وتعدّد الرواة، وتعدد الحكايات وتداخلها، وتكثيف اللغة، والاعتماد على الاستبطان بصورة كبيرة، وغيرها من الأساليب الحديثة التي حملتْ في ثناياها ميلا واضحا إلى التّجديد ممّا أدى إلى ارتياد عدد قليل من هذه الرّوايات لآفاق التّجريب في محاولة جادّة ومركّزة لدى (علي المعمري، وعبدالعزيز الفارسي، وجوخة الحارثي، وحسين العبري) ألحقت الرّواية العُمانية بركب الرّواية العربية والعالمية في خوض هذا الميدان.

وتتلون القصص القصيرة جدا بتلاوين متعددة، فعند اصطدامنا بعناوين المجاميع القصصية العُمانية القصيرة جدا، يتبين اختلاف تراكيبها الجُملية والنّحوية، فبعضها يقدم عبارة عن مفردة، وأخرى عبارة عن جملة، وأخرى عبارة عن تركيب ثنائي إسنادي يتشكل من نعت ومنعوت، أو من مضاف ومضاف إليه. وفي اختلافها التّركيبي هذا اختلاف من حيث المحمولات والدّلالات، بعضها صريح وبعضها مباشر، وبعضها ضمني ومضمر. إنّ التّداخل بين الأجناس الأدبية، وخاصة تلك التي تدخل في نطاق الأدب الشّخصي يفرض علينا الانطلاق من النّص والبحث في جماليّاته، والاستناد إلى خصائص تقنية، ومعايير علميّة حتى لا يفقد النّص أدبيته، فالسّاحة الثّقافية العُمانية تحضر فيها نصوص متنوعة، انفتحت على فضاءات متنوعة بين السّرد والشّعر، وهي بحاجة إلى تجنيس ودراسة معمّقة؛ خاصة إذا أكدنا أنّها مازالت تتمحور في سردها وإيقاعاتها حول الذّات الكاتبة ومحيطها. فأدب الذّات خطاب مفتوح يتداخل مع الأجناس الأدبية والمعرفية، يتأثر بها ويتماهى معها.

> **الترجمات ومرونة اللغة العربية واتساعها فتحت أبوابا مشرعة عند ترجمة المصطلحات النقدية وما يقابلها في اللغة العربية**

وتبين لنا من خلال الدّراسة أن الكتابات الذّاتيّة بوصفها نسقا مغايرا للكتابات السّرديّة التّخييلية، تستند إلى ركيزتين هما التّاريخ والأدب، فهي قصة تسرد حياة صاحبها، وتتوافر فيها عناصر التّشويق الفني، والإمتاع البياني، فكتابة الذّات مهما كان نوعها وشكلها ما هي إلّا رواية المرء لحياته، أو جزء منها بأسلوب أدبي.

ومن المفيد ذكره أنّ معظم هذا النّتاج السّردي (المرجعي الذّاتي) كانت عناية أصحابه بالمضمون أكثر من عنايتهم بالشّكل؛ ولذلك يمكن القول إنّ قيمتها التّاريخية قد تفوق قيمتها الفنيّة.

لقد مكنتنا متابعتنا للخطاب العماني من رصد التّطور الفني لكتابة أنواع السّرد وخصائصه، خاصة في مضمار القصة القصيرة التي كانت آخذة في التبلور المطّرد بداية من الثمانينات وامتدادا إلى التسعينات. ولا شك أنّ العقد التّسعيني في عُمان يعد المجال الزّمني الذي تفتّحت فيه أقوى الأصوات تعبيرا ودلالة، سواء في القصة القصيرة أو الرواية، وانطلق الحكي الفني عبره يحفر مجراه راسما مساراته الكبرى في أبنية فنيّة ستتهيكل وتتنضد تدريجيا لتؤكد ما يماثل "هويّة" سرديّة خصوصية، وتفصح عن خصوبة الرؤية والوعي الفني.

الحوار ينشر كاملا على الموقع بالإتفاق مع الجديد

هناك محاولات جادة للتجديد الروائي

تجربة في النقد والإبداع